بلاغة الكلمة في التعبير القرآني

تأليف
الأستاذ الدكتور
فاضل صالح السامرائي
أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

شركة العاتك لصناعة الكتاب
القاهرة - ت: ٥١٢٤٤٧٥

بلاغة الكلمة
فى التعبير القرآنى

الأستاذ الدكتور
فاضل صالح السامرائي

كافة الحقوق
محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - بغداد

الطبعة الثانية - القاهرة
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

طبعة خاصة بالعراق

بيانات الكتاب

عنوان الكتاب: **بلاغة الكلمة فى التعبير القرآنى**
اسم المؤلف: الأستاذ الدكتور: **فاضل صالح السامرائى**

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٠٧٦٦

تطلب كافة منشوراتنا

بغداد - مكتبة النهضة - شارع المتنبي
بغداد - مكتبة أنوار دجلة - شارع المتنبي
بغداد - المكتبة القانونية - شارع المتنبي

شركة
العاتك لصناعة الكتاب
للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة

١١ أ درب الأتراك - خلف جامع الأزهر
ت ٥١٢٤٤٧٥ - جوال ٠١٠٤٨٨٧٦٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله إمام الهدى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

هذا كتاب يبحث فى المفردة فى القرآن الكريم، والمقصود بـ (**المفـردة**) هو الكلمة الواحدة – كما هو معلوم –

إن موضوع المفردة فى القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحى غير أنى آثرت أن أبحث باختصار أموراً أراها ذات أهمية خاصة فيما أحسب وإن كان التعبير القرآنى كله مهماً.

وهذه الأهمية تعود إلى أكثر من سبب:

منها أن قسماً مما بحثته فى هذا الكتاب لم أجد المعنيين بدراسة بلاغة القرآن والمعنيين بدراسة المتشابه قد أشاروا إليه فيما وقع بين يدى من المصادر وإن كان لا يبعد أن يكون مطروقاً فى الأسفار التى لم يسعفنا الحظ فى الوصول إليها وما أكثرها!

وذلك نحو كثير من أحوال الذكر والحذف فى المفردة نحو (**تَنَزَّل**) و (**تتنزّل**) و (**تَوفّاهم**) و (**تتوفّاهم**) و (**نَبغِ**) و (**نبغـي**) وغيرها وذلك كقوله تعالى: ﴿**تنـزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهـم**﴾ وقوله: ﴿**تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا**﴾ وقوله: ﴿**إن الذين تَوفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم**﴾ وقوله: ﴿**الذين تتوفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم**﴾ وقوله: ﴿**ذلك ما كنا نبغ**﴾ وقوله: ﴿**قالوا يا أبانا ما نبغي**﴾.

ونحو كثير من أحوال الإبدال فى المفردة نحو: (**يَضَّرَّعون**) و (**يتضرّعون**) و (**يذّكّرون**) و (**يتذكّرون**) و(**اطّيرنا**) و (**تطيّرنا**) وكاستعمال (**اللآئى**) و (**اللآتى**) وغيرها، كقوله تعالى: ﴿**قالوا إنّا تطيرنا بكم**﴾ وقوله: ﴿**قالوا اطيّرنا بك وبَمنْ معك**﴾.

ولا شك أن كل مفردة وضعت وضعاً فنياً مقصوداً فى مكانها المناسب، وإن الحذف من المفردة مقصود، كما أن الذكر مقصود، وإن الإبدال مقصود، كما أن الأصل مقصود، وكل تغيير فى المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه، كما سنبين ذاك ما وسعنا البيان.

والسبب الآخر الذى دعانى إلى تناول هذه المباحث هو أن قسماً مما بحثته قد طرقه الباحثون قبلى، وحاولوا أن يتلمسوا الفروق بين استخدام المفردات، غير أنى لم أقتنع بقسم من هذه التعليلات، ورأيت أن كثيراً منها متكلف، فحاولت أن أعللها تعليلاً آخر وجدته أشفى لنفسى وأكثر إقناعاً، وأنا لا أزعم أنى أتيت بأحسن مما ذكروه، وأن توجيهى أصوب مما ذهبوا إليه، ولكنى أذكر ما وجدته فى نفسى، وهذا نحو توجيه (**فعّل**) و (**وأفعل**) بمعنى نحو (**نزّل**) و (**أنزل**) و (**نجّى**) و (**أنجى**)، كقوله تعالى: ﴿**ما نزّل الله بها من سلطان**﴾ وقوله: ﴿**فنجيّناه ومَنْ معه فى الفلك**﴾ وقوله: ﴿**فأنجيناه ومَنْ معه فى الفلك**﴾.

وكاستعمال الإفراد والتثنية والجمع كالنخل والنخيل.

وتعاور المفردات كالعاكفين والقائمين فى قوله تعالى: ﴿**أن طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركّع السجود**﴾ وقوله: ﴿**وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركّع السجود**﴾، وما إلى ذلك.

ثم إن هناك أمراً آخر دعانى إلى تناول مثل هذه الأبحاث، وهو أنى لم أجد فى شأن المفردة فى القرآن الكريم وتعليل استعمالاتها كتباً مختصة فى حدود ما اطلعت عليه.

نعم هناك فى كتب التفسير وكتب المتشابه وغيرها إشارات إلى سبب اختيار هذه اللفظة فى هذا الموضوع دون غيرها من المتشابه، كاختيار (**تخرصون**) فى قوله: ﴿**إنْ هم إلا يخرصون**﴾ واختيار (**يظنون**) فى قوله: ﴿**إنْ هم إلا يظنون**﴾ أو استعمال (**القسط**) فى قوله: ﴿**وقُضيَ بينهم بالقسط**﴾ واستعمال (**الحق**) فى قوله: ﴿**وقُضيَ بينهم بالحق**﴾.

كما أن هناك كتباً فى مفردات غريب القرآن قد تذكر الفرق بين لفظة وأخرى، كالفرق بين جاء وأتى، والفرق بين الصراط والطريق والسبيل، والفرق بين (**يفعلون**) و (**يعملون**) و (**يصنعون**) وهو أشبه بما يكتب فى الفروق اللغوية، غير أنى لم أرَ كتاباً يبحث فى المفردة فى القرآن ويبوبها على الموضوعات ويجمع ما تشابه من ذلك ويدرسه، فحاولت أن أضع بداية متواضعة فى هذا الموضوع فلعله يأتى مَنْ يتم هذا العمل ويتوسع فيه.

وقد ترى أنى لم أبحث فى هذا الكتاب موضوعات كان من المتوقع أن أبحثها، كالإدغام والفك، نحو (**مَنْ يرتدّ**) و (**مَنْ يرتدد**)، وكالفروق اللغوية، كالخوف والخشية والشح والبخل والصراط والسبيل، والاختلاف بين المصادر ونحوها فأقول:

لقد حاولت أن أتجنب كثيراً مما بحثته فى كتبى السابقة قدر الإمكان كموضوع الإدغام والفك الذى ترددت آياته فى أكثر من موضوع فى كتاب (**التعبير القرآنى**) وكتاب (**الجملة العربية**) ونحو كثير من معانى الأبنية كالمصادر والجموع وغيرها مما بحثته فى (**كتاب الأبنية فى العربية**).

أما الموضوعات الأخرى التى لم أبحثها، فإن الكلام فيها يتسع اتساعاً كبيراً، فلعل الله ييسر لنا أن نكتب فيها شيئاً فى قابل الأيام.

وهناك أمر مهم جدير بأن أنبه عليه وما كانت لأذكره لولا أنى رأيت جُملة من حَمَلة العلم أشاروا إليه.

وذلك أنى فى أثناء إلقاء محاضرات من هذا الموضوع على جماعة من أهل العلم وعلى طلبة الدكتوراه وفى مواقف أخرى طرح سؤال، وهو أن هذه التعليلات قد تكون مقبولة بموجب الرسم القرآنى الذى بين أيدينا، فكيف يكون التعليل إذا كان الرسم مختلفاً على قراءات أخرى؟

فمثلاً قوله تعالى: **﴿إن المتقين فى جنات ونهر﴾** لقد عللنا فيه سبب التعبير بـ (**نهر**) دون الجمع(١)، فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى: **﴿إن المتقين فى جنات وأنهار﴾**؟

وقوله تعالى: **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم﴾** فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى (**تتوفاهم**)؟

وقوله: **﴿ذلك ما كنا نبغ﴾** بحذف الياء، فكيف إذا كانت هناك قراءة بإثبات الياء، أى **﴿ذلك ما كنا نبغى﴾**؟

وقوله تعالى: **﴿قالوا اطيّرنا بك﴾** فكيف إذا كانت هناك قراءة بلا إبدال، **﴿قالوا إنّا تطيّرنا بك﴾**؟

وكاستعمال اللاتى واللائى، وكقوله تعالى: **﴿وما جعل أزواجكم اللآئى تظاهرون منهن أمهاتكم﴾**.

وقوله: **﴿واللآتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾**.

وما إلى ذلك.

والجواب: أن أركان القراءة الصحيحة – كما هو مقرر – ثلاثة:

١- صحة السند.

٢- موافقة خط المصحف العثماني.

---

(١) انظر كتابنا (لمسات فنية فى نصوص من التنزيل).

٣- موافقة العربية.

ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة، أم عمن هو أكبر منهم.

هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف[١].

فموافقة رسم المصحف العثماني شرط من شروط القراءة الصحيحة، ومتى اختل هذا الشرط فخالفت القراءة رسم المصحف دخلت فى الضعف أو الشذوذ أو البطلان.

وبهذا يزول الإشكال فإن كل قراءة تخالف رسم المصحف لا تدخل فى الصحيح.

وبهذا يتضح أن ليست هناك قراءة صحيحة (**إن المتقين فى جنات وأنهار**) فإن كلمة (**أنهار**) تخالف رسم المصحف.

وكذلك ما ورد من (**تَوفّاهم**) و (**تتوفّاهم**)، فإن (**تَوفّاهم**) تكتب بتاء واحدة

و(**تتوفّاهم**) تكتب بتاءين، فلا تكون إحداهما مكان الأخرى، لأن ذلك مخالف لرسم المصحف.

وكذلك قوله: ﴿**ما كنا نبغ**﴾ فإنه ليست هناك قراءة معتمدة باثبات الياء، لأنها رسمت فى المصحف بلا ياء.

ونحو قوله: ﴿**اطّيرنا**﴾ فإنه لا يصح أن تُقرأ فى الموضع نفسه (**تطّيرنا**) لأنها مخالفة لرسم المصحف.

ونحو اللآئى واللآتى فانهما فى الرسم العثمانى مختلفتان.

فاللائى ترسم بلا صورة للهمزة (**الّئى**).

---

(١) انظر النشر فى القراءات العشر ٩/١.

أما اللاتى فترسم فيها للتاء صورة (التّى).

وكذلك سائر ما ذكرناه فإنه لا يصح أن يقرأ بما يخالف رسم المصحف فسقطت هذه الشبهة أصلاً.

وأود أن أذكر فى الختام أمراً تجد الإشارة إليه، وهو أنى حاولت أن أعتمد فى التوجيه والترجيح على الأمور اللغوية المسلمة والقواعد المقررة – على قدر علمنا المتواضع – والاستعانة بالسياق لتلمس الفروق فى الاستعمال وهو مهم جداً فى الدلالة على سبب الاختيار، لئلا تزلّ بنا القدم وتذهب بنا بنيّات الطريق.

نسأل الله أن يلهمنا الرشد ويهدينا الطراط المستقيم

إنه سميع مجيب

الذكر والحذف

قد يحذف فى التعبير القرآنى من الكمة نحو (**استطاعوا**) و (**اسطاعوا**)، و(**تتنزّل**)، و (**تَنزّل**)، و (**تتوفاهم**)، و (**توفّاهم**)، و (**لم يكن**)، و (**لم يك**)، وما إلى ذلك، وكل ذلك لغرض وليس اعتباطاً، فالتعبير القرآنى تعبير فنى مقصود، كل كلمة، بل كل حرف إنما وضع لقصد، كما ذكرنا فى كتابنا (**التعبير القرآنى**).

أن القرآن يحذف من الكلمة لغرض ولا يفعل ذلك إلا لغرض، ومن ذلك على سبيل المثال:

١- أنه يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه، وإن زمنه أقصر ونحو ذلك، فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث.

أو يحذف منه فى مقام الإيجاز والاختصار بخلاف مقام الإطالة والتفصيل، فإذا كان المقام مقام إيجاز أوجز فى ذكر الفعل فاقتطع منه، وإذا كان فى مقام التفصيل لم يقتطع من الفعل، بل ذكره بأوفى صورة.

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه فى (**التعبير القرآنى**)، وفى (**معانى النحو**)، من نحو قوله تعالى: (**لم يكن**)، و (**لم يك**)، وغيرهما، فلا نعيد القول فيه[1].

ونحو قوله تعالى: **﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾** [الكهف:٩٧] وذلك فى السد الذى صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب، وقد ذكرنا أن الصعود على هذا السد أيسر من إحداث نقب فيه لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف، فقال: **﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾** بخلاف الفعل الشاق الطويل، فإنه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: **﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾** فخفف بالحذف من الفعل بخلاف الفعل الشاق الطويل.

---

(١) انظر التعبير القرآنى، ٧٢ وما بعدها، معانى النحو ٢٤٨/١ وما بعدها.

ثم إنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصّر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤]

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]

فقال في هذه الآيات (تنزّل) في حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]

فقال في آيتي القدر والشعراء (تنزل) بحذف إحدى التائين، وقال في (فصّلت) (تتنزّلُ) من دون حذف، وذلك والله أعلم أن التنزل في آيه (فصّلت) أكثر مما في الآيتين الآخريين، ذلك أن المقصود بها أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة(١)، وهذا يحدث على مدار السنة في كل لحظة، ففي كل لحظة يموت مؤمن مستقيم فتتنزل عليه الملائكة لتبشره بالجنة، فأعطى الفعل كل صيغته ولم يحذف منه شيئاً.

وأما آية الشعراء، فإن التنزل فيها أقل لأن الشياطين لا تتنزل على كل الكفرة، وإنما تنزل على الكهنة أو على قسم منهم، وهم الموصوفون بقوله: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيراً في الناس وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم، بل هم قلة فاقتطع من الحدث، فقال (تنزل) بحذف إحدى التائين.

---

(١) انظر فتح القدير ٥٠١/٤، روح المعاني ١٢١/٢٤.

وكذلك ما فى آية سورة القدر، فإن تنزل الملائكة، إنما هو فى ليلة واحدة فى العام، وهى ليلة القدر، فهو أقل من التنزل الذى يحدث باستمرار على مَنْ يحضره الموت، فاقتطع من الحدث.

فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التائين فى آيتى الشعراء وآية القدر، لأن التنزل أقل، ولم يحذف من آية فصلت، لأنه أكثر والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ**﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

وقوله: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:٢٧-٢٨].

فقال فى آية النساء (**تَوفّاهم**) بحذف إحدى التائين، وقال فى سورة النحل (**تتوفاهم**) من دون حذف، ذلك أن المتوفّين فى سورة النساء هم جزء من الذين هم فى النحل، فالذين فى النحل هم الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم.

وأما الذين فى النساء فهم المستضعفون منهم، فهم قسم منهم، فلما كان هؤلاء أقل حذف من الفعل إشارة إلى الاقتطاع من الحدث وإلى قلته بالنسبة إلى الآخرين، فقال فى القسم الأكبر (**تتوفاهم**) وقال فى القسم القليل (**تَوفّاهم**) بحذف إحدى التائين، فناسب بين الفعل وكثرة الحدث.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ**﴾ [الأحزاب:٥٢].

وقوله: ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢]

فقال فى آية الأحزاب (**تبدّل**) بحزف إحدى البائين، وقال فى آية النساء (**ولا تتبدلوا**) من دون حذف، ذلك أن آية الأحزاب حكمها مقصور على الرسول ﷺ، فهو منهىّ عن أن يتبدل بأزواجه أزواجاً.

أما الآية الثانية فهى حكم عام للمسلمين على مرّ العصور، فقال فى الحكم المحدد والحدث المقصور على شخص واحد (**تبدّل**) بالحذف من الفعل، وقال فى الحكم العام الممتد على مرّ العصور (**تتبدلوا**) فجاء بالصيغة القصيرة للحدث القصير وبالصيغة الطويلة للحدث الطويل الممتد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٥].

وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٣-١٤].

فقال فى آية آل عمران **(ولا تفرقوا)** بحذف إحدى التائين، وقال فى آية الشورى **(ولا تتفرقوا)** وذلك لأكثر من سبب منها:

١- أن آية آل عمران خطاب للأمة الإسلامية، وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائع متعددة ذكر منها شريعة نوح وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى، فلما كانت هذه فى أمم متطاولة على مدى التاريخ جاء بالصيغة التى هى أطول، ولما كانت الآية الأولى فى أمة واحدة وهى أمة محمد وهى جزء من الأمم المذكورة فى الشورى، جاء بجزء من الفعل ولم يأت به كله.

٢- أنه نهى الأمة الإسلامية عن أى شىء من التفرق مهما كان قليلاً أو جزئياً وحذر من ذلك فقال **(ولا تفرّقوا)** فاقتطع من الفعل للدلالة على النهى عن أى شىء من التفرق مهما قلّ وضؤل.

ثم إن الملاحظ أن تحذير الأمة الإسلامية من التفرق ونهيها عنه أشد:

١- فقد خاطب المؤمنين بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ آمراً وناهياً ومحذراً.

٢- ثم أمرهم بالوحدة والاعتصام بحبل الله، فقال: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ**﴾.

٣- ثم أكد ذلك بالحال المؤكدة، فقال **(جميعاً)** للدلالة على أن ذلك مطلوب من جميع أفراد الأمة بلا استثناء وأنه لا تُغني الكثرة الكاثرة من المتحدين المعتصمين، بل ينبغى أن يكون ذلك على سبيل العموم والاستغراق، فلا يشذ أحد منهم، ولا تُنجى الكثرة المعتصمة أو تحمى الفرد غير المعتصم من المحاسبة والعقوبة.

٤- لم يكتف بالأمر السابق، بل نهاهم بصريح العبارة اضافة إلى ذلك، فقال **(ولا تفرقوا)**.

٥- التذكير بنعمة الله عليهم فى التأليف بين قلوبهم.

٦- نهاهم عن أن يتشبهوا بمَنْ تفرق واختلف، فقال: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ**﴾.

٧- توعدهم على ذلك بالعذاب العظيم.

٨- لقد أطلق العذاب ولم يقيده بزمن، فلم يقل **(وأولئك لهم فى الآخرة عذاب عظيم)** كما قال فى مكان آخر: **﴿ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [البقرة:١١٤] للدلالة على أن عذاب التفرق يطولهم فى الدنيا والآخرة.

٩- ومن الملاحظ أنه جاء بـ(أنْ) التفسيرية فى آية الشورى ولم يخاطبهم مخاطبة صريحة، فقال: **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** فى حين نهاهم نهياً مباشراً فى آل عمران، فقال: **﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾** والكلام المباشر الصريح أهم وأكد من المفسر، فقولك:**(قلت له: يا فلان أفعل)** أهم وآكد من قولك **(أوصيته أن افعل)**.

وهناك ملاحظة أخرى فى التعبير أنه جاء بالاسم الموصول **(ما)** فى شرائع الأمم الأخرى، وجاءَ بـ**(الذى)** فى شريعة سيدنا محمد، فقال: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ (مَا) وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ ﴿و(مَا) وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾** فى حين قال: **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** ذلك أن **(الذى)** أعرف من **(ما)** كما هو معلوم[1].

فلما كانت شريعة سيدنا محمد أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا لأننا نعرفها كلها جاء بـ**(الذى)** ولما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعة سيدنا محمد، من حيث معرفتنا بها فإنّا نعلم ما أعلمنا به ربنا فى القرآن الكريم، جاء بـ**(ما)** والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾** [الأنفال:٢٠]

وقوله: **﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾** [هود:٥٢]

---

(١) انظر معانى النحو ١/١٤٩.

فقال فى آية الأنفال (**ولا تولّوا**) بحذف إحدى التائين، وقال فى آية هود (**ولا تتولوا**) من دوف حذف، ذلك أن آية الأنفال خطاب المؤمنين **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾** وأن آية هود هو خطاب للكافرين وهم قوم هود.

ومن المعلوم أن تولى المؤمنين أقل من تولى الكافرين، ذلك لأن المؤمنين مطيعون لله بخلاف الكفرة، فلما كان تولى المؤمنين أقل حذف من الحدث للدلالة على قلة توليهم بخلاف تولى الكافرين فإنه عام شامل فهو يشمل تولى المؤمنين وزيادة، فزاد فى الفعل للدلالة على زيادة توليهم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه نهى المؤمنين عن التولى مهما كان قليلاً، فقال: (ولا تولَوا) وهو نظير ما ذكرناه آنفاً فى قوله تعالى: **﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾**.

ونحو ذلك قوله تعالى: **﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** [الفتح:١٦].

فقال: (تتولوا) بتائين ذلك أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا ممن تمكّنَ الإيمان فى قلوبهم وإن تخلفهم كان تخلف نفاق(١) بدليل ما قبلها من الآيات، فقد قال تعالى فيهم:

١- يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ــ ١١.

٢- بل ظنم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزُيّن ذلك فى قلوبكم ــ ١٢.

٣- وظننتم ظن السُّوء ــ ١٢.

٤- وكنتم قوماً بوراً ــ ١٢.

فجاء بالتولى تاماً.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٨٩/٤.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٦-٣٨]

فقال (تتولوا) بتائين، ذلك أن المقصود بالتولى هنا هو التولى عن الإيمان والتقوى[١]، فجاء بالتولى تاماً فلم يحذف من الفعل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨٠]

فقال (تصدّقوا) بحذف إحدى التائين والأصل (تتصدقوا) ذلك لأن هذه من أحوال الصدقة النادرة وهو التصدق بدين المُعسِر فحذف لما لم يكن كالصدقة المعتادة لكونها أقل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]

بعدم الحذف من الفعل (تستطع) فى الآية الأولى، وحذف التاء منه فى الآية الثانية، وذلك أن المقام فى الآية الأولى مقام شرح وإيضاح وتبيين، فلم يحذف من الفعل.

وأما الآية الأخرى فهى فى مقام مفارقة ولم يتكلم بعدها بكلمة وفارقة، فحذف من الفعل.

---

(١) انظر البحر المحيط ٨٦/٨ ، فتح القدير ٤١/٥، روح المعانى ٨٢/٢٦.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠]

وهذا كلام سيدنا إبراهيم مع قومه ومحاجته لهم وهم ناس عريقون فى الشرك وعبادة الأوثان، فهم محتاجون إلى التذكر وإدامة التفكر والتأمل ليهتدوا إلى التوحيد، كما فعل سيدنا إبراهيم وهو ينظر فى ملكوت السموات والأرض يبحث عن ربه وخالقه، فظنه الكوب باديء ذى بدء، ثم ظنه القمر، ثم ظنه الشمس، حتى اهتدى إلى خالقه بعد التأمل والنظر والتفكر، وهذا الأمر ذكره ربنا قبل هذه الآية [الأنعام:٧٥-٧٩] ثم انتهى إلى المحاجة مع قومه ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ...﴾ الآية.

فهذا مما يحتاج إلى طول تفكر وتفكير، فجاء بالفعل كاملاً لم يحذف منه شيئاً (**أفلا تتذكرون**) كما ناسب من ناحية أخرى مقام التفصيل والإطالة فيما حكى عن سيدنا إبراهيم واهتدائه إلى الحق من رؤية الكوكب فالقمر ثم الشمس، ثم انتهى إلى الحقيقة الكبرى حقيقة التوحيد.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤]

وهذا مما لا يحتاج إلى طول تأمل أو تذكر أو تفكير، فإنك إذا سألت أى فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوى رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوى الأعمى والبصير والأصم والسميع؟ كان جوابه: كلا لا يستويان.

فحذف من الفعل للدلالة على أن هذا لا يحتاج إلى طول تذكر وتأمل.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨]

فقال: (**تتذكّرون**) بتائين، فما الفرق؟

والجواب أن الفرق واضح بين الآيتين، ذلك أن آية غافر هذه فى الذين كفروا الذين يجادولن فى آيات الله بغير سلطان أتاهم وهؤلاء لا يرون أن المؤمنين أفضل منهم، بل على العكس من ذلك، فإنهم يرون أنفسهم أفضل من المؤمنين، فهم لا يقرّون بهذا القول إقرارهم بالآية السابقة، خصوصاً وأنه عبَّر عن الكافر بالمسيء، جاء فى (**فتح القدير**) فى قوله تعالى: ﴿**ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء**﴾ "أى لا يستوى المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء بالكفر والمعاصى. وزيادة (**لا**) فى (**ولا المسيء**) للتأكيد"[١].

وجاء فى (**تفسير ابن كثير**) فى تفسير هذه الآية: "أى لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار (**قليلاً ما تتذكرون**) أى ما أقلّ ما يتذكر كثير من الناس"[٢].

فهم يحتاجون إلى طول تذكر وتفكر ليعلموا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أفضل من الكافر وأن الكافر مسيء، فهذه هى أصل المسألة وعليها مدار الخلاف.

فالفرق واضح فى الآيتين، فإن آية هود ليس فيها خلاف ويستوى جميع عقلاء الخلق فى إقرارها مؤمنهم وكافرهم من دون تفكير ولا طول تذكر، ولذا قال فى آية هود: ﴿**هل يستويان مثلاً**﴾ ولم يقرر ذلك، بل ترك الجواب لمَنْ يجيب وهو معلوم، فى حين قرر ذلك فى آية غافر ولم يسأل، فقال: ﴿**وما يستوى الأعمى والبصير...**﴾ لأن جواب هذا السؤال فيه اختلاف وليس بمنزلة السؤال الأول، فالفرق واضح بينهما.

---

(١) **فتح القدير ٤/٤٨٤.**

(٢) **تفسير ابن كثير ٤/٨٥.**

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧] فإن الجواب واضح من دون حاجة إلى طول تأمل وتذكر، فقال (**تذكّرون**).

ونحوه قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:٢٣]

فلو سألت أى شخص هل بإمكانه أن يهدى شخصاً هذا شأنه:

١- أنه اتخذ إلهه هواه. ٢- أضلّه اللهُ على علم.

٣- ختم على سمعه. ٤- ختم على قلبه.

٥- جعل على بصره غشاوة.

لأجاب بالنفي ولقال إنه ليس بوسع أحد أن يهدي مثل هذا الشخص غير الله ، والإجابة عن هذا لا تحتاج إلى طول تأمل وتفكير.

فإنه ليس بوسع أحد أن يَهدِي شخصاً لا يسمع ولا يرى ولا يفقه، فكيف بمَنْ أتخذ إليه هواه مع كل ذلك؟

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِـهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف:٣]

فقال (**تَذكّرون**) بتاء واحدة، وذلك إنها خطاب للمؤمنين، فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿**كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْـهُ لِتُنـذِرَ بِـهِ وَذِكْـرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ....**﴾.

والمؤمنون لا يحتاجون إلى طول تذكر لاتباع ما أنزل إليهم من ربهم، بل أنهم بتذكر قليل يفعلون ذاك، فحذف من آية الأعراف لذلك، جاء فى (**تفسـير فـتح القدير**) فى قوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُـمْ....**﴾: "يعنى الكتاب ومثله السنة لقوله: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ ونحوها من الآيات وهو أمر للنبى ﷺ ولأمته، وقيل: أمر للأمة بعد أمره ﷺ بالتبليغ، وهو منزل إليهم

بواسطة إنزاله إلى النبى ﷺ ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾ نهى للأمة أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله"(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٤-٥]

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣]

فقال فى السجدة :(**أفلا تتذكرون**) وقال فى يونس: (**أفلا تذكرون**) وذلك أنه فصل فى السجدة ما لم يفصل فى يونس وذلك:

١- أنه قال فى يونس: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقال فى السجدة: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

فزاد فى السجدة: (**وما بينهما**).

٢- قال فى يونس: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾.

وفصل فى السجدة فقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ففصل ما أجمله فى يونس.

٣- قال فى يونس: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

وقال فى السجدة: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، فزاد الولى، فأطال فى فعل التذكر فى السجدة، فقال (**تتذكرون**) وحذف من الفعل فى يونس، فقال (**تذكرون**) مناسبة للمقام.

---

(١) فتح القدير ١٧٩/٢.